سنة :أولى ماستر /مقياس :منهجية البحث التاريخي

المحاضرة 01: ماهية التاريخ.والمدارس التاريخية / سنة: سنة أولى ماستر

اختلف الباحثون والفلاسفة والمفكرون في تحديد معنى واضحا للتاريخ، وقد يرجع ذلك لعدة أسباب أهمها اختلاف التكوين الفكري للشعوب والأمم وبالتالي اختلاف نظرتهم لهذا الجانب المهم من المعرفة الإنسانية. وعلى هذا الأساس سوف نبحث عن مدلول التاريخ وتطور مفهومه ومعطياته بالنسبة للشعوب وحسب العصور.

قبل أن ندرج في إيضاح هذا المعنى يجب الإشارة إلى أن لفظة تاريخ تطلق تارة على الماضي البشري وطورا على الجهد المبذول لمعرفته (معرفة الماضي) ورواية أخباره ووقائعه.ولقد تناول الالتباس معظم اللغات الأجنبية منها أو العربية، ويعود ذلك إلى شعور أصيل عند الإنسان بالارتباط الدقيق بين معرفة الماضي والماضي نفسه ويزداد هذا الشعور بصفة خاصة بازدياد إحساسه بماضيه وتلفته إليه وتأثره به، وعليه سوف نفصل في تطور هذا المفهوم بالنسب للشعوب الإسلامية والعربية، ثم الشعوب الأجنبية خاصة منها الأوروبية.

1/– مفهوم التاريخ في المدرسة العربية والإسلامية:

استعمل العرب والمسلمون لفظ التاريخ منذ القرون الهجرية الأولى وظهر ذلك جليا في كتاباتهم وكتبهم، هذا ما يدفعنا إلى معرفة جذور الكلمة وتطوراتها اللغوية والاصطلاحية.

من الناحية اللغوية وردت عدة معاني للتاريخ منها:

- ماورد لدى الصولي في كتابه "أدب الكتاب": تاريخ كل شيء أي **غايته ووقته** الذي ينتهي إليه زمنه، ومنه قيل لفلان تاريخ قومه، إما لكون إليه المنتهى في شرف قومه، وإما لكونه ذاكرا للأخبار وما شاكلها.
- ماورد في القواميس العربية (مثل: لسان العرب ومختار الصحاح للرازي) من أن التاريخ هو **تعريف الوقت** والتوريخ مثله: يقال أرخ الكتاب ليوم كذا وقّته.
- ويذكر الجوهري أن التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله، يقال: أرخت وورخت، وقيل اشتقاقه من **الأرخ** يعني بفتح الهمزة وكسرها، وهو الأنثى من بقر الوحش، لأنه شيء يحدث كما يحدث الولد.
- ويقول أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتابه الخراج: **تاريخ كل شيء آخره**، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادث مشهورة.

- أما عبد الملك الباهلي الأصمعي فقد فرق بين اللغتين فقال: بنو تميم يقولون ورخت الكتاب **توريخا**، وتقول قيس أرخته **تأريخا**، وهذا ما يؤكد أنه **عربيا**.
- أما السخاوي في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" فيقول: التاريخ في اللغة **الإعلام بالوقت**، يقال أرخت الكتاب وورخته، أي بينت وقت كتابته، وهو الأقرب للمعنى.
- بالنسبة لأبو منصور الجواليقي في كتابه "المعرب من الكلام الأعجمي" فقد أورد أن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي، وإنما أخذه الناس **من أهل الكتاب**
- كما قيل أن لفظ التاريخ ليس عربيا محضا، بل هو معرب مأخوذ من **"ماه روز"** ماه معناه: القمر، روز معناه: اليوم.

نلاحظ من خلال ما تقدم أن اللغويين والمؤرخين ذاتهم اختلفوا في تحديد المعنى اللغوي للفظ التاريخ ومادة اشتقاقه، فمنهم من يذهب إلى أنه لفظ عربي محظ ومنهم من ينسبه إلى اللغة الفارسية وهذا الأخير مستبعد للغاية بسبب فارق الاشتقاق وبعد التقارب اللغوي بين لفظتي: تاريخ وماه روز، أما بالنسبة للتعاريف اللغوية فقد يكون أقرب المعاني لتعريف التاريخ هو: الإعلام بالوقت وتحديد الزمن.

وقد يكون المؤرخ المستشرق **جب Jibb** قد أصاب حين أكد على أن مصطلح "تاريخ" لفظ عربي محض، غير أن أصل كلمة تأريخ هو الأصل السامي العام لكلمة ورخ التي تُمثَّل على سبيل المثال في كلمتي: **ياريح** العبرية التي معناها القمر و**يرح** التي معناها الشهر، وعلى هذا القياس يكون معنى كلمة تأريخ هو التوقيت أي تحديد الشهر، ثم اتسع نطاق هذا اللفظ فشمل من جهة أخرى معنى تحديد عهد حادث ما، وبمعنى التأريخ: أي رواية هذا الحادث، ومن جهة أخرى بمعنى تحديد الوقت او العصر أو التأريخ المدون بحسب السنين. وهو أمر منطقي في ضوء الحقيقة القائلة بأن العرب مثل العبرانيين استخدموا التقويم القمري الذي مانزال نعتمد عليه في التقويم الهجري حتى اليوم، كما أن اللغة العربية واللغة العبرية تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة مما يرجح أن تكون الكلمة عربية أصلا. ويبدو أن هذا اللفظ استعمل في اللغة العربية الجنوبية على شكل: توريخ، وبعد التطور الزمني واللغوي والفكري الذي شهدته الحضارة الاسلامية أخذت كلمة تاريخ عند العرب عدة معاني نحصي منها:

- سير الزمن والأحداث تقابل :"The history of..."
- تحديد زمن الحادث التاريخي أو الواقعة باليوم والشهر والسنة : "The date of..."
- علم التاريخ والتعريف به، وكتب التاريخ وما فيها وهو يقابل: "The History of"
- عملية التأريخ أوالتدوين التاريخي ووصف التطور وتحليله وهي تقابل كلمة: "Historiographie"
- تاريخ الرجال أو تراجم الرجال ويقابل: "The biographie"

ومنذ تحديد عمر بن الخطاب للهجرة مبدأً لتأريخ الأحداث أخذ المسلمون يدونون تاريخهم ويكتبونه لأسباب متعددة، وأخذ مفهوم التاريخ يتطور، ويعد ابن خلدون أفضل من أبدع في صياغة مفهوم التاريخ فقال:"...**فإن فن التاريخ من الفنون التي**

تتداوله الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى ناد بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق" وبهذا يعتبر هذا التعريف أعلى مرحلة من مراحل النضج للتعريف الاصطلاحي للتاريخ عند العرب والمسلمين.

وقد عرفه السخاوي بعده فقال:"...**فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت عما كان في العالم، وأما موضوعه فالإنسان والزمان، ومسائله أحوالها المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان"**

وعلى هذا الأساس فقد عرف أحد الباحثين العرب على أن التاريخ هو: المصدر الأساسي للمعرفة الإنسانية، وهو ذلك السفر الخالد الذي يحوي بين دفتيه التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي مرت بها البشرية منذ قدر الله للإنسان أن يبدأ حياته على الأرض، وحتى يغير الله الأرض غير الأرض.

كما يمكننا هنا أن نقدم تعريف قسطنين زريق والذي يعبر عن ضرورة اعطاء التاريخ معنى البحث عن الحقائق، فيقول: هو السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه.

2/– مفهوم التاريخ في المدرسة التاريخية الغربية:

يستعمل مصطلح التاريخ يستعمل في اللغات الأجنبية الحية كما يلي: اللغة الفرنسية "Histoire" وفي اللغة الانجليزية "History" وفي اللغة الألمانية"Gechichte" وفي اللغة الإسبانية "Historia"، يبدو أن الإشكال نفسه قد طرح في الفكر الفلسفي الغربي حول ما يعتقده العام والخاص حول التاريخ: هل يقصد به أحداث الماضي أم العلم الذي يعنى بذلك.

على هذا الأساس حاول الباحثون الغربيون التمييز بين المعنيين، فذهب الفرنسيون إلى كتابة كل ما يعبر عن أحداث ووقائع الماضي ب: Histoire (H majiscule) وإطلاق: histoire (h minuscule) على العلم الذي يعنى بها.

إذا بحثنا في جذور هذا المصطلح نجده كلمة يونانية يعني جذرها فعل النظر histor، أو بالأحرى شاهد عيان، وما يضيفه هذا الشاهد إلى تجربته الخاصة ليس إلا شهادة أخرى، يعني شهادة من الدرجة الثانية، وقد استعمل هيرودوت (484–425 ق م) مصطلح Historia عنوانا لكتابه الشهير، وهذه الكلمة تعني الاستقصاء والاستفسار من أجل الفهم، ولذلك استحق أن يسمى أبو التاريخ فلم تستطع الشعوب السائدة أنذاكمثل المصريين والفرس أن ينجبوا مؤرخا عبقريا مثله.

وقد تلى هيرودوت ثلة من المؤرخين اليونان متخذين منهجه بل وطوروه في كثير من الأحيان، وهذا الأمر ورثه الرومان بوراثتهم سيادة البحر المتوسط، فاستعملو نفس المصطلح لكن بحروف لاتينية HISTORIA كما أخذ نفس المعنى، وهذا ما جعل اللغات الأوروبية الحالية، تشتق اسم ومفهوم التاريخ من هذا اللفظ نفسه. رغم ذلك فإن الرومان لم يضيفوا جديدا لمفهوم التاريخ ولم يسعوا بجهد وافر لتطويرمناهجه، بل جعلوه للخطابة وخدمة القومية وتذكر الأمجاد، وهو ما اشتهرلديهم بأيام الشؤم وأيام الفأل.

إذا درجنا إلى العصور الوسطى الأوروبية نجد أن الجمود الفكري الذي ساد في ذلك العصر لم يكن بمنأى عن التاريخ، فقد أصبحت مهمة حفظ الوثائق وتسجيل وتدوين الأحداث من اختصاص الرهبان، ولم يطرأ على مصطلح التاريخ أي تطور إلا سيطرة الفكر الديني والمسيحي خاصة على كتابة الأحداث التاريخية.

أخذ مفهوم التاريخ يتغير ويتطور تبعا للتغيرات الفكرية والتطورات العلمية التي شهدتها أوروبا خاصة مع تطور الفكر الفلسفي والإجتماعي خلال القرنين 17 و18م، حيث اخذ مفهوم النقد والاعتماد على الوثيقة يتسللان إلى معنى التاريخ، وأصبح العقل جزءً مهما في الدراسة التاريخية، الأمر الذي أحدث ثورة في مفهوم التاريخ وأصبح يعني مفاهيما متعددة، وأفضل من عبر عن ذلك المؤرخ الإنجليزي آرثر مارفيكArtherMarvicفي كتابه المسمى طبيعة التاريخ " The nature of history " حيث يقول:

إن لفظ تاريخ يستعمل عادة في ثلاث مستويات من المعاني:

- الاستعمال الأول: أن التاريخ يعرفنا بماضي البشر كله كما حدث.

- الاستعمال الثاني: والأكثر فائدة أن التاريخ يعني محاولة الإنسان وصف الماضي وتفسيره وهو المحاولة التي تبذل للمكشف عن الأشياء المهمة في الماضي على أساس شواهد جزئية ماضية.

- دراسة التاريخ كعلم.

لم نذكر هذا التعريف على سبيل الحصر بل مثال عن تطور مفهوم التاريخ وقد وردت وجهات نظر أوروبية مختلفة لتعريف التاريخ منها:

قال المفكر **بول فاليريValéry**:"إن الماضي...يفعل في المستقبل بقوة توازي قوة الحاضر ذاته...فالمستقبل في تحديده، لاصورة له. لأن التاريخ وحده كفيل بإعطائه الوسائل التي تساعده على تطوره".

يقول المؤرخ **جواد بولس**:"التاريخ هو علم يعكف على بسط تطور المجتمعات البشرية بسطا وصفيا".

أما المؤرخ الفرنسي **بير H.Berr** فكان أكثر دقة فقال:"إن التاريخ، في المفهوم العلمي، هو البحث عن الأسباب التي انتجت الحضارة منذ أقدم العصور ودفعتها قدما عبر الكثير من الأزمات".

المهم لدينا أن التاريخ—نتيجة للنهضة العلمية- قد تحرر من مفهومه الكلاسيكي كسرد الوقائع والأحداث وترتيبها إلى مفهوممتقدم ومعاصر، بحيث غدا علما اختباريا على غرار علم الطب والطبيعيات والحياة، له قواعده وسننه المستخلصة من تكون الشعوب وتطورها وله منهجيته العلمية الخاصة به.

مراجع ينصح بالرجوع إليها:

- قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ وصنع التاريخ، ط6، بيروت: دار العلم للملايين 1985م.
- محمد بيومي مهران، **التاريخ والتأريخ**دراسة في ماهية التاريخ وكتابته ومذاهب تفسيره ومناهج البحث فيه،
- كريستين نصار، **الإنسان والتاريخ**أثر التاريخ وتأثر بسيكولوجية الفرد، ط1، طرابلس- لبنان: جروس بيرس، 1991م.
- قاسم عبده قاسم، **تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية**، ط1، الهرم: والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000م.

محاضرة (02)

العلوم المساعدة للتاريخ

كباقي العلوم الأخرى فإنه لايمكن دراسة التاريخ مستقلا بذاته عن سائر العلوم الأخرى ،فمثلا لانستطيع فهم القرآن دون معرفة اللغة و علوم القرآت و الفقه و الحديث ،التصوف ،الأدب ...إلخ و عليه ولدراسة التاريخ دراسة تصل بنا إلى الغاية من دراسته لابد أن نكون عارفين بالعلوم التي لها علاقة بدراسة التاريخ و كتابته ،نشير هنا بأن العلوم المساعدة لدراسة التاريخ تختلف و تتفاوت بإختلاف العصر أو الناحية ،لأن العلوم المساعدة لدراسة حضارة اليونان مثلا تختلف عن العلوم المساعدة لدراسة عصر النهضة،كما أن علم اللغات يعتبر من أهم العلوم المساعدة ،لأنه لابد من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع المراد البحث فيه و الكتابة عنه لأن الترجمة التي تكفي لتحصيل الثقافة العامة لاتفي بحاجة المؤرخ ،لذلك تعتبر مختلف العلوم التي يمكن اللجوء إليها في الدراسات التاريخية ضرورة بحثية حتى يصل البحث التاريخي للغاية التي ينشدها ،وعلى هذا يمكن استعراض بعض العلوم التي لا يمكن الاستغناء عنها فيما يلي :

- الفيلولوجيا (فقه اللغة) :وضرورية لدراسة فروع كثيرة في التاريخ وكلما بعد العصر أزدادت أهمية فقه اللغة ،إذ أنه لفهم النصوص التاريخية لابد من معرفة لغة ذلك العصر التاريخي ،وليست اللغة علامات جبرية أو أرقاما ،ولكن اللغة كائن حي ينمو و يتطور تبعا للمكان و الزمان ولتعبير الأنسان و إختلاط الثقافات وفي بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوي على معنى محدد ،كما يمكن أن يدل على معاني نسبية أو متغيرة أو متضادة ،وقد تدل كلمة واحدة على معاني مختلفة بإختلاف إستخدامها عند كلتب معين .وتبدو هذه الظاهرة مهمة في دراسة التاريخ ،لذلك لابد من معرفة اللغة يقرأ بها دارس التاريخ فضلا عن الدراية بما نال ألفاضها من معاني مختلفة حتى لا يفسر مايقرأ على غير حقيقته.

- علم قراءة الخطوط : من العلوم الأساسية لدراسة نواحي كثيرة من التاريخ مند أقدم العصور ،وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث و يتدرب على قراءتها ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت و تجنبه الوقوع في الخطأ وتضح أهمية هذه الدراسة في فروع عديدة مثل :تاريخ مصر القديم ،تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام ،تاريخ اليونان ،تاريخ الرومان.لقد تقدمت و تطورت الخطوط و كتبت بأشكال مختلفة فمثلا نجد في الخطوط العربية :الطومار (نسبة إلى قلم الطومار ،سلاطين مصر يكتبون بهذا الخط) ،النسخي و الرقعة ،الثلث ،الكوفي ، المغربي ..إلخ.
- علم الوثائق أو علم الدبلومات : من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ و الوثائق في المعنى العام تدل على كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية دون أن يتحصر دلك فيما دون منها على الورق ،ولكنها في المعنى الدقيق الذي أصطلح عليه الباحثون في التاريخ –هي الكتابات الرسمية –أو شبه رسمية مثل الأزامر و القرارات و المعاهدات و الإتفاقيات و المراسلات السياسية أو الكتابات التي تتناول مسائل الإقتصاد أو التجارة أو عادات الشعرب و تقاليدهم أو المشروعات و المقترحاتن التي تصدر عن المسؤولين في المدكرات الشخصية ،لذلك ينبغي لدا التي تصدر عن المسؤولين في المدكرات الشخصية ،لذلك ينبغي لدارس التاريخ أن يتعلم الأسلوب و المصطلحات الخاصة بالوثائق زائد نوع الحبر المستعمل ،الأقلام التي كثب بها ،الورق المستعمل ،خصائصه ،الصفات الخاصة بالكاتب وطريقة كتابته لبعض الحروف .
- دراسة الأختام : هي أشكال مختلفة فمثلا :أختام معدنية ،أختام دهبية بأشكال بيضوية ،مستديرة ،مثلثة ،دوقلب أو صليب ،ولأن معرفة أنواع الأختام تفيد الباحث من التأكد من صحة الوثائق .
- علم الرنوك : ونعني به العلامات المميزة التي تظهر على الأختام أو الدروع أو حتى على ملابس النبلاء أو الجند و الأعلام ،وقد وجدت الرنوك مند القدم فعرف أهل العصور الوسطى إستخدامها السلاجقة ،المماليك ،العثمانيين للدلالة على وظائف أرباب السيف ومن هذه العلامات الكأس،السيف ،النسر ،الهلال ،ديل الحصان ،زهرة الزنبق .
- علم النوميات :العملة بما تحمله من صور الآلهة ،ملوك ،أمراء من خلال أسماؤهم ،ألقابهم ،ذكرى الحوادث ،سنوات ضربها ،لذلك فالعملة تكشف عن كثير من الحقائق التاريخية بل في بعض الأحيان تصحح لنا هذه الحقائق .
- الجغرافيا :من العلوم المساعدة الضرورية لان الإرتباط وثيق أصلا بين التاريخ و الجغرافيا ،فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه الوقائع التاريخية وهي ذات أثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنساني ،مع الظواهر الجغرافية المختلفة وذلك تبعا لنوع تفاعله مع بيئته و مواجهته لظروفها (سهول ،جبال ،وديان كل هذا يؤثر في تكوين الإنسان في لغته ،نبرة صوته ،لون بشرته ،أساطيره ،ملكاته العقلية بل فكره كله ،وهو مايبين لنا أثر الجغرافيا في التاريخ وهذا مانلاحظه من تدخل الجغرافيا أحيانا في تغيير مجرى التاريخ (منع البحر تقدم تيمورلنك عن من العبور إلى أروبا بعد أن هزم بايزيد الأول في موقعة أنقرة 1402 وبدلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية)
- المنطق : يفيد الباحث في التاريخ في بنائه التاريخي و كذلك الإلمام بتقسيم العلوم أي موضوع التاريخ في سائر العلم (فلسفة التاريخ)
- اللغة : تعتبر اللغات من أهم العلوم المساعدة التي ينبغي أن يتزود بها الباحث في حقل البحث التاريخي ،لأنه لابد أولا :من معرفةاللغة الأصلية التي كتب بها الموضوع التاريخي لأن الترجمة التي تكفي لتحصيل الثقافة العامة لا تفي حاجة المؤرخ لفهم الناحية التي يريد فهمها ،وعليه فكلما تعددت اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة التني يلم بها الباحث تتسع أفق البحث فيستطيع الرجوع إلى الأصول و المصادر التاريخية الأولى و هذه كلها أساسية لا يمكن بغيرها السير قدما في سبيل بحث تاريخي محض .

– أ شاوش

–